مجلة إشكالات ISSN: 2335-1586
مجلد: 6 عدد: 3 السنة 2017 رقم العدد التسلسلي 13

عبْـدُ الْقَاهِرِ الجُرْجَانـيِّ: حَيَاتـهُ وَمُؤَلَّفَاتُهُ وَمَنْـهَجُهُ اللُّغَـوِيُّ.

Abdul Alqahir Jerjani; his life; biography and his approach to the study of the language

د.عبد الرّحيم البار
جامعة محمّد خيضر بسكرة/الجزائر
Abderrahimelbar07@gmail.com

مُلَخَّصُ البَحْثِ

عَبْدُ الْقَاهِرِ الجُرْجَانيِّ عَالِمُ النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ قَرَأَ وَنَظَرَ فِي تَصَانِيفَ سَلَفِهِ مِنَ النُّحَاةِ وَاللُّغَوِيينَ، اتَّسَعَ عِلْمُهُ لِيَشْمَلَ جُلَّ مَجَالَاتِ اللُّغَةِ المُخْتَلِفَةِ؛ كَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالْبَلَاغَةِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي أَعْمَالِهِ؛ كَكِتَابِه دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ وَالتَّكْمِلَةُ فِي النَّحْوِ وَتَفَاسِيرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَغَيرُهَا مِنَ المُؤَلَّفَاتِ، فَكَرَّسَ حَيَاتُهُ فِي خِدْمَةِ لُغَةِ 'الضَّادِ' لُغَةُ 'الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ'، وكَانَ مِنْ أَبْرَزِ عُلَمَاء زَمَنِهِ وَأَشَدَّهِمْ حِرصًا وَرَغْبَةً فِي إِثْرَاءِ المُخْزُونِ التُّرَاثِيِّ الْعَرَبِيِّ بِآرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ، وَنَقِفُ هُنَا ضِمْنَ هَذَا المَقَالِ بِتَقْدِيمِ عَرْضٍ عَامٍ وَشَامِلٍ يَتَنَاوَلُ حَيَاتَهُ وَأَعْمَالَهُ وَمَنْهَجَهُ فِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ.

-الكلمات المفتاحيّة:

عبد القاهر الجّرجاني-حياته-مؤلّفاته-منهجه.

-Summary: Abdul Alqahir Jerjani scholar of syntax and rhetoric read and considered the categories of his grammarians and writers predecessors; his knowledge has been expanded to include most of the areas of language and appeared so evident in his multiple works such as *Signs of Miracles*, *Supplement in Syntax*, and *The Interpretations of the Verses of the Koran,* among others, He devoted his life to serve the language of 'Koran'. He was one of the eminent scholars at that time whose desire is to enrich the Arabic language with his views and ideas. This article is an attempt to provide an overview and comprehensive details with his biography, his work and his approach to the study of the language.

Key words: aljarjani-His life-works-Systematize.

أ-الجرجاني:حياته ونشأته:

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجانيّ (400-471هـ/1009-1078م) النّحوي المتكلّم، ولد 'بجرجان'[1] لأسرة رقيقة الحال، نشأ ولوعاً بالعلم محبّاً للثّقافة الأدبيّة والإسلاميّة، فأقبل على كتب النّحو دراسة وقراءة، واهتم بمطالعة الأدب العربيّ شعرا ونثرا. نشأ في أسرة متوسطة الحال عيشا ونشأة وحال هذا الوضع الماديّ دون سفره لأخذ العلم خارج مدينته جرجان كان اهتمامه بعلوم النّحو والأدب والشّريعة غالبا على جلّ شؤون حياته وبرز في سنّ مبكرة من عمره. ومن حسن حظّه أن وجد في مدينته عالمين كبيرين وهما 'أبو الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النّحوي'[2]، و'القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني'[3]. وتأثّر عبد القاهر بأستاذه أبي الحسين الجرجاني، وقد تتلمذ من كتب وآثار علماء النّحو أبناء الحاضنة العربيّة؛ ودليل ذلك نقله عن 'سيبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وأبي أحمد العسكري وعبد الرّحمن بن عيسى الهمداني، والمرزباني، والزجاج'.

اعتنق الجرجاني 'المذهب الشافعيّ'[4]، وتكلّم بالطريقة الأشعرية، ونجد في كتاب 'سير أعلام النّبلاء' وصفا دقيقا لشخص عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- حيث يقول صاحبه الذّهبيّ: هو "شيخ العربية أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرّحمن الجرجاني أخذ النّحو 'بجرجان' عن أبي الحسين محمّد بن حسن بن أخت الأستاذ أبي علي الفارسي...وكان شافعيا عالما، 'أشعريا'[5] ذا نُسك ودين توفّي سنة إحدى وسبعين وأربع مئة"[6] للهجرة، تميّزت مرحلة بروزه بعدم الاستقرار السياسي وكثرة الحروب. ولم يكن هذا في حقيقة الأمر مانعا في طلب العلم لديه والتّزوّد بالمعارف، بل ظلّ منكبّا على ما وافقه من محاصيل العلم لغة وأدبا وشريعة بحثا ودراسة. أمسى عبد القاهر الجرجانيّ مدرسة أفضت إلى حاضنة اللّغة العربيّة كمّا هائلا من المعارف وخاصة في كتبيه 'دلائل

الإعجاز وأسرار البلاغة'؛ وأسهم في تنشئة علماء لغة تتلمذوا على يده أبرزهم: "علي بن محمد بن علي أبو الحسن بن أبي زيد المعروف بالفَصيحي من أهل أسْتَراباذ، بلدة من أطراف خراسان. قرأ النّحو والبلاغة والعربية على عبد القاهر الجرجاني وبرع فيه حتى صار من أعرف أهل زمانه به وأصبحت له شهرة كبيرة، ثم ترك جرجان وانتقل إلى بغداد إلى أن توفي بها سنة: (516 هـ)...وهو من أشهر تلاميذ الجرجاني–رحمه الله– وسمّي بالفصيحي لكثرة دراسته كتاب 'الفصيح' لثعلب...وأحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير و'مهاباذ' هي قرية بين قم وأصبهان، ولقِّب بالضرير لأنّه كان ضريرًا، تتلمذ على عبد القاهر الجّرجانيّ واستفاد منه كثيرًا حتى اكتسب شهرة، ومن أبرز مؤلّفاته كتاب 'شرح اللمع لم يسبق إليها، بل مثّلت ثمرة أعماله وجهوده في النّحو وخاصة في عمله لابن جني' وهذا الكتاب يوجد منه نسخة في خزانة الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور بتونس، كتبت سنة: (591 هـ) ...وأحمد بن إبراهيم بن محمّد أبو نصر الشّجري تتلمذ على عبد القاهر الجّرجانيّ واستفاد منه كثيرًا وقرأ عليه كتاب 'المقتصد' لعبد القاهر الجّرجانيّ. وقد كتب عبد القاهر الجرجاني نفسه بخط يده ما نصّه: 'قرأ عليَّ الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمّد الشّجري – أيَّده الله – هذا الكتاب من أوَّله إلى آخره قراءة ضبط"[7].

عرف عبد القاهر بسعة الصّدر في تقبّل النّقد ومناقشة معاصريه وتميّزه بأفكار ذو طرح جديد في نظم الكلام، وقد عدّت 'نظرية النّظم'[8] كسبا معرفيّا مهمّا يضاف إلى علوم اللّغة العربيّة، وخاصة البلاغة، وعليها قامت دراسات لغوية حديثة خصّته بمباحث علمية واسعة مستلهمة أفكاره وأطروحاته منها، رغبة في استنطاق (نظرية النّظم) وتوظيف أساليب جديدة خدمة للّغة. وهكذا الصّورة العامة لحياة الجرجانّي المعيشية والمعرفية؛ التي تميزت البساطة والجدّ والأخلاق والمحافظة والشغف في طلب العلم، وتحصيل المعرفة.

ب–انجازاته ومؤلّفاته:

تدّل كتب عبد القاهر الجّرجانيّ المختلفة على سعة علمه وقدرته المعرفيّة الكبيرة التي تجلّت وضوحا في أعماله، فهو ذو كفاءة عالية في علوم الدّين والأدب واللّغة، وخطّ بقلمه مدوّنات كثيرة؛ وإن كان منها من لم يصل لنا سوى عنوانه بـ'أخبار التواتر'[9]،

وأقسّمها هنا إلى قسمين قسم ما هو موجود وواضح أصله، وقسم منقول لنا بالأخبار ولا دليل عليه سوى عنوانه:

-القسم الأوّل، (ما ورد مرجعه وطبع): ممّا جاء حول مؤلّفات عبد القاهر الجرجاني ما ذكره الذّهبي في كتابه 'سير أعلام النّبلاء' محدّثا عن أعمال عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- حيث يقول: "وصنّف شرحا حافلا (للإيضاح) -أي الجرجانيّ- يكون ثلاثين مجلّدا، وله (إعجاز القرآن) ضخم، و(مختصر شرح الإيضاح)، ثلاثة أسفار و(كتاب العوامل المئة)، وكتاب (المفتاح) وفسّر الفاتحة في مجلّد، وله (العُمد في التصريف) و(الجمل)، وغير ذلك"[(10)].

وفي حاشية الكتاب نجد شرحا قدّمه محقّق كتاب الذّهبي يصف كُتب الجرجاني بقوله: "كتب أوّلا شرحا مبسوطا في نحو ثلاثين مجلّدا وسمّاه (المغني)، ثمّ لخصّه في مجلّد وسمّاه (المقتصد). وله مختصر (الإيضاح) المسمّى بـ(الإيجاز)...ومن مصنّفاته العظيمة المشهورة كتاب (أسرار البلاغة) في علم البيان، وكتاب دلائل الإعجاز في المعاني"[(11)]. ونقدّم في هذا القسم الكتب الموجودة والمطبوعة، وهي:

1-العوامل المائة، تأليف مجد الإسلام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجّرجاني الشّافعي عني به أنور بن أبي بكر الشّيخي الداغستاني، دار المنهاج جدة، الطبعة الأولى عام: (1430هـ).

2-الجمل، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، حقّقه وقدّم له: علي حيدر، مجمّع اللّغة العربيّة دمشق: (1392هـ- 1972م).

3-دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجّرجاني، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، وفايز الدّاية، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى: (1428 هـ- 2008م).

4-أسرار البلاغة في علم البيان، المؤّلف: عبد القاهر الجرجاني، صحّحها وعلّق حواشيها محمّد رشيد رضا، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (1409هـ-1988م).

5-الرّسالة الشّافية، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمّد خلف الله ومحمّد زغلول سلام، دار المعارف مصر، الطّبعة الثّالثة، المجلد: 1، (1976م).

6–المقتصد في شرح التّكملة، المؤلف: عبد القاهر الجّرجاني، المحقق: أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الدويش، النّاشر: جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة الرياض، رقم الطبعة: 1، عدد، المجلدات: 3، سنة النّشر: (1428هـ– 2007م)"[13].

7–المفتاح في الصّرف، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتقديم: علي توفيق الحمد مؤسّسة الرّسالة للطّباعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة الطبع: (1407هـ–1987م).

8– العُمُد في التصريف، الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجّرجاني حقّقه وقدّم له، وعلّق عليه: الدكتور البدراوي زهران، الطبع الثالثة، دار المعارف، القاهرة، (1995م).

–القسم الثاني، (المجهول من مؤلّفاته من حيث المتن والمادة): بعد الذي قّدمناه حول الكتب المذكورة والمطبوعة، نقوم في هذا القسم بذكر مجموعة من الكتب التي تنسب إلى عبد القاهر الجّرجاني أو تناقلتها أخبار الكتب حول أعلام اللّغة ولا يتوفر منها سوى العنوان المسنود للجّرجاني، أو مخطوطات غير واضحة المعالم وقبل الولوج إليها نستحضر أقولا يذكر فيها أعمال الجّرجاني، ومنها ما جاء في كتاب سير نبلاء الأعلام للذّهبي: "وصنّف شرحا حافلا (للإيضاح) –أي الجرجانيّ–يكون ثلاثين مجلّدا وله (إعجاز القرآن) ضخم، و(مختصر شرح الإيضاح)، ثلاثة أسفار و(كتاب العوامل المئة)، وكتاب (المفتاح)، وفسّر الفاتحة في مجلّد، وله (العمد في التّصريف) و(الجمل) وغير ذلك"[12]. وفي حاشية الكتاب نجد شرحا قدّمه المحقّق حول هذه الكتب وصفها بقوله: "كتب أوّلا شرحا مبسوطا في نحو ثلاثين مجلّدا وسمّاه (المغني) ثمّ لخصّه في مجلّد وسمّاه (المقتصد). وله مختصر (الإيضاح) المسمّى بـ(الإيجاز)...ومن مصنّفاته العظيمة المشهورة كتاب (أسرار البلاغة) في علم البيان وكتاب دلائل الإعجاز في المعاني"[13]. في هذا القول نجد كتبا ذكرت وأثرها موجود على شكل مخطوطات نادرة متوّفرة في أماكن محدودة، وفي نصوصها المكتوبة غموض في الكتابة، ونذكرها كما يلي:

1–كتاب الإيجاز مختصر لشرح المقتصد، توجد له مخطوطة بالمغرب.

2–كتاب شرح المجاز القرآني للواسطي الكبير والصغير، مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بالجزائر العاصمة.

3–كتاب المختار من دواوين البحتري وأبي تمّام والمتنبي، مخطوط بالهند.

4–كتاب التتمة (التكملة) في النّحو، كتاب مختصر جمع فيه ما فاته في كتاب الجمل من تعريف لبعض الأصول النّحوية ناظرا إلى العامل من جهة المعمول والتأثير، بقي مخطوطة بالمتحف البريطاني.

ولا يخفى أن هناك كتبا عديدة مفقودة "مجهولة ويبقى البحث –فيها– قائما للكشف عنها"[14]. بحيث نجد عناوين كتب لا وجود لها سوى ذكرها بمسمياتها، وهذا ما أشرنا إليه، من عناوينها نذكر:

1–كتاب التذكـــــرة.

2–كتاب التلخيــص.

3–شـرح الفاتحـــــة.

4–كتاب إعجاز القرآن الصغير والكبير.

5–كتاب المقتصـد.

وكتوضيح لما أسلفناه عن جميع كتبه الموجودة وغير الموجودة؛ فقد أحصى محمّد رضوان الدّاية، وفايز الدّاية أربعة عشر مؤلّفا لعبد القاهر الجرجاني موجودة كنسخ ورقية محفوظة وذكروا كتبا تنسب له دون أثر عليها، وقدّموا لها تفصيلا دقيقا ضمن مقدّمة تحقيقهم لكتاب دلائل الإعجاز، وفيه جاء قولهم كالآتي: "نستطيع أن نرتب مصنّفات عبد القاهر الجرجاني في عدد من الأقسام المؤتلفة ذلك أنّها تدور في فلك علوم العربيّة والإعجاز، والأدب:

أ–الدّراسات النّحوية والصّرفية والعروضية:

1–كتاب (المغني) في النّحو وهو ثلاثون جزءا، وهو شرحا لكتاب أبي علي الفارسي (الإيضاح).

2–كتاب (المقتصد) وهو تلخيص في مجلّد واحد لما جاء في (المغني). (بغداد 1982م جزآن).

3-(الإيجاز) وهو مختصر لكتاب (الإيضاح).

4-(العوامل المئة) في النّحو. (بولاق، مصر، 1247هـ).

5-شرح كتاب (العوامل)، واسمه: الجمل، (دمشق).

6-العمدة في التصريف.

7-كتاب في العروض.

ب-الدّراسات القرآنيّة:

8-شرح الفاتحـــــــة.

9-(المعتضد) وهو شرح مبسوط لكتاب (الإعجاز) الذي صنّفه أبو عبد الله محمّد ابن زيد الواسطي (ت307هـ).

10-شرح مختصر لكتاب (الإعجاز) للواسطي.

11-الرّسالة الشّافية (القاهرة، دار المعارف، مصر 1972م، الطّبعة: 3).

ج-الدّراسات البلاغيّة والأدبيّة:

12-(دلائل الإعجاز)، وهو كتابنا الذي نقدّمه في هذه المطبوعة.

13-أسرار البلاغة. (ط. مصر، المنار، 1331هـ، ط. ريتر استانبول 1954م).

14-المختار من شعر المتنبي والبحتري وأبي تمّام، مجلد 1 (ط، مصر 1937م).

وثمّة كتب أو أوراق لا يتضح محتواها في الأخبار كـ(المفتاح) و(التذكرة) -ويختم الباحثان نصّهما بقولهم- "ولقيت مؤلّفات عبد القاهر قبولا لدى الدّارسين في الآماد المتلاحقة وقام على شرحها وتلخيصها ومناقشتها العلماء في كتب لهم إضافة إلى دراستها في حلقات العلم"[15].

وحين اطّلاعي لأعمال الجرجاني لاحظت إشكالية مسمّيات الكتب واختلاف المصطلح، وهذا من ناحية عارض في ضبط أعماله على نحو: كتابه في الصرف فهناك من يسميه العُمُد في التصريف وهناك من يسميه العمدة في الصرف وكذلك كتابه في النّحو هناك من يسميه التّتمّة في النّحو، وهناك من يسميه التّكملة في النّحو. ويستثنى من هذا باقي الكتب المطبوعة التي وصلت إلينا. تمثّل أعمال الجّرجانيّ نقلة نوعية لدى

حاضنة اللّغة العربية، فقد استلهم أفكارا جديدة أخذت منحا جديدا في دراسة البلاغة العربيّة، وتمثّل ذلك فعلا في نظريته المميّزة 'نظرية النّظم'[16] التي اعتبرت انطلاقة جديدة في قراءة البلاغة العربيّة، وتحليل نظم اللّغة العربيّة ضمن حيّز العلاقة التركيبيّة والدّلالية بين البلاغة والنّحو من جهة، وبين اللّفظ والمعنى من جهة أخرى، وهذا ما أدرجه الجرجاني في نظريته. والنّظم في تعرف المحدثين: "معاني النّحو التي يدور عليها تعلّق الكلام بعضه ببعض"[17]، كما اعتبر كاتباه 'أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز' المرجعان الأساسيان في بحثه البلاغيّ خاصة فيما يتعلّق بمعاني النّحو وعلم المعاني، وندعّم ما أسلفناه حول أعمال الجرجاني، وخاصة كتابيه الشهيرين 'دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة' بقول شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطوّر وتاريخ): "ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة، إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أمّا النّظريّة الأولى؛ فخصّ بعرضها وتفصيلها كتابه: (دلائل الإعجاز)، وأمّا النّظريّة الثانية؛ فخصّ بها وبمباحثها كتابه (أسرار البلاغة)"[18]؛ الذي يعدّ من أشهر ما كتب في البلاغة العربيّة.

جـ-عبد القاهر الجرجاني: منهجـــــه وآراؤه وتوجّهــه وأفكــاره:

من المؤكّد أنّ عبد القاهر الجّرجانيّ -رحمه الله- كانت له رؤية خاصة في استنطاق علوم البلاغة العربيّة وربطها بالموروث النّحوي العربيّ راجيا في ذلك فكّ غموض النّقصان العارض على استعمال اللّسان العربيّ في زمنه؛ كون البلاغة في نظره أخذت تنحو صوب الغموض والابتعاد عن الاستعمال الصحيح، واتضح ذلك جلّي في كتابه دلائل الإعجاز وخاصة في عرضه لقواعد النّظم ومفاهيمه وفائدته، وكان للجرجاني الطريقة الأمثل في عرض أفكاره، وبرز منهجه بوضوح في عرض كتابه دلائل الإعجاز، ونستلهم خطواته المنهجيّة في ذلك؛ من خلال آراءه الآتية:

1-التزامه النّحو وأصوله من وجهة شرعيّة: لا يخفى أنّ الجرجاني إمام حافظ لكتاب الله تعالى، داريا بعلوم الشّريعة لاسيّما منها علوم القرآن؛ ودليل ذلك كتبه في الإعجاز والتفسير فهو يستقي مادته المعرفيّة من علوم النّحو العربي والمطّلع على كتاب دلائل الإعجاز يلحظ قوة الاستشهاد والتمثيل النّحوي؛ حتى أنّ هناك من وصفه بكتاب

نحوٍ أكثر منه بلاغة؛ وخاصة تفصّله في مسائل النّحو؛ ولكن هذا ليس إلّا دلالة قوية على ربط العلّامة الجرجاني مفاهيم البلاغة وقواعدها بمعطيات النّحو العربي: "ومن خلال ترتيب منهج الجرجاني ندرك أنّه قد أصاب الهدف في شرحه لأهمية النّحو قبل أن يأخذ بالحديث عن نظرية النّظم، وأهميته تأتي من خلال البدء بمعرفة أصول النّحو حتى ندرك أهمية الكلمة وهي تدخل في سياق النّظم لتؤدي غرضها اللّغوي وغرضها المعنوي. وهذا يدلّ على أنّ الجرجاني يدرك بعقله النّقدي المتطوّر وحسّه البلاغيّ وذوقه الأدبي أنّه لا يمكن إدراك قيمة اللّغة إلا من خلال موقعها النّحوي أوّلا، ثم من خلال موقعها في سياق الكلام ثانيا"[19]، وهكذا تتجّلى نزعته اللّغوية في قراءة البلاغة، وبسط أفكاره فيها مفسّرا ذلك بالصلاح اللّغوي الذي يضمن البقاء على الصّحة والصواب في استعمال دلالات اللّغة العربيّة؛ وردّ على المقصّرين والمتطاولين على نظام النّحو العربي بالتشكيك في نواياهم حتى أنّه اتهمهم باستهداف الدّين الحنيف: لأنّهم رأوا النّحو "ضربا من التّكلّف، وبابا من التّعسّف، وشيئا لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد منه على معرفة الرّفع والنّصب وما يتصل بذلك ممّا تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا...وآراءٍ لو علموا مغبّتها وما تقوده إليه لتعوّذوا بالله منها ولَأَنِفُوا لأنفسهم من الرّضا بها، ذاك لأنّهم بإيثارهم الجهل بذلك على العلم، في معنى الصّادّ عن سبيل الله، والمبتغى إطفاء نور الله تعالى"[20]، كما نلمس في هذه العبارة وازعه الإسلاميّ المحافظ فهو يرى أنّ الحفاظ على اللّسان العربي وصونه من الانحراف؛ من المسؤوليات العقائديّة التي لا يمكن بأيّ حال التّنازل عنها، أو التقصير في أدائها نظرا للارتباط الوطيد بين اللّغة العربيّة والدّين الإسلاميّ الحنيف وعلى اعتبار أنّ اللّغة العربيّة هي المنطلق الأساس في فهم قواعد الشّريعة الإسلاميّة، فبهذا الوصف لآرائه؛ تتبيّن إحدى لمحات الجرجاني المنهجيّة؛ المتمثّلة في انتمائه اللّغوي النّحوي الموروث من مشايخه وعلماء زمانه، ونزعته الدينيّة الإسلاميّة المستسقاة من بيئته المحافظة التي ترعرع فيها؛ ونستلهم حرصه الشّديد على ما أسلفناه؛ من قوله: "وأمّا زُهدهم في النّحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره وتهاونهم به...أشبه بأن يكون صدّا عن كتاب الله، ومعرفة معانيه"[21] فسمة المحافظة والتأصّيل والمتابعة لازمت جلّ خطواته المعرفيّة، والمنهجيّة.

2-قراءته لأعمال أساتذته وتأثره بعلماء زمنه: من الواضح أنّ الجرجاني أخذ علوم اللّغة والشّريعة عن جماعة من علماء زمانه، فقد ذكر الرّواة أخذه علوم النّحو واللّغة على يدي أبي الحسين بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النّحوي والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، وتأثّرا بآراء الخليل وسيبويه والجاحظ، وأبي علي الفارسي وابن قتيبة وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري، وأبي أحمد العسكري، وعبد الرّحمن بن عيسى الهمداني والمرزباني، والزجّاج فهو ذو منهج لغويّ تراثيّ ينبع من أفكار وآراء علماء اللّغة الكبار، ونقله لتفاسيرهم حول علوم النّحو، وقراءته 'المقارنة المتزنة'[22] في شرح وتفسير علوم اللّغة ومظاهرها واتضح ذلك جليّا في شواهد كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز فهو يحتج بآراء ويثني عليها ويردّ على آراء ويعقّب عليها برأيه ويفسّر إشكالات اللّغة من منطلق مرجعيّ بحت قوامه التأصيل والموازنة بين الآراء وتحقيق الصواب في ضبط مسائل اللّغة.

3-التّفكير الفلسفي والتّفسير المنطقي لقضايا اللّغة العربيّة: "حفل جهد عبد القادر الجرجاني البلاغي والنّقدي بعدد من العلامات المنطقيّة، وقد انتظمت في أثناء فصول 'الدّلائل والأسرار' بصورة لا تبدو فيها حادة الجوانب، بارزة في تميّز من لحمة التحليل الذي يجريه المصنّف ولكنّنا باستقراء متأنّ نلحظ أنّ العمل التّنظيري احتاج من عبد القاهر إلى ركائز عقليّة وأصول ثقافيّة كان من ضمنها المنطق أو بعض مسائله على وجه التّحديد، وتنتسب هذه المسائل إلى المفهوم الأورغانون الأرسطي وتداخل الأقيسة فيه بحيث جعل للشّعر والخطابة أقيسة منطقيّة تباين البراهين اليقينيّة واستدلالات الجّدليين وأهل السفسطة"[23] كان للجرجانيّ -رحمه الله-أسلوبه الخاص في تبنّي قواعد النّحو واستنطاق مفاهيمه؛ بما يتلاءم ونظرته الفكرية في بناء قواعد البلاغة من معان وبيان، ولهذا فقد كان السبّاق في تقنين البلاغة ورسم أسسها رغم المحاولات الأوّلية التي سبقت أعماله، مقاسه في ذلك إخضاع النّقل إلى العقل بما لا يتعارض وأسس اللّغة ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة؛ ولهذا كان توجهه أشعريا أكثر منه إلى الفرق الكلاميّة الأخرى 'كالمعتزلة'[24]؛ فقد استعرض دراسات متعدّدة ضمن كتابه 'دلائل الإعجاز' واقفا عند حدود المقاربة العقلية، والتأويل المنطقي في شرح آراءه، واستبيان مواقف علماء اللّغة

في تفسير قضايا التأويل بالحذف والتقدير، والوصل والفصل، والتقديم والتأخير وغيرها من قضايا معاني النّحو ومدى أثر ذلك في بلاغة الكلام. ويتضح ذلك جليّا في نظريّة النّظم؛ قد مثّلت قوّة فكره ودقّة توجّهه المعرفي وبيّنت طرحه المنطقي: "لذلك نظر الشّيخ عبد القاهر إلى مفهوم النّظم نظرة عالية التجريد باعتباره ليس سوى تنظيم وترتيب الكلمات حسب إرادة 'الناظم' بشرط احترام قواعد النّحو. ثم اعتبر أنّ عملية النّظم ذاتها ليست سوى عمليّة علمية تقوم على تطبيق قواعد ثابتة مثلها مثل أي عملية فنية تقنية دقيقة تعتمد على العلم. فالمادة الخام هنا هي الألفاظ المتفق على معناها عرفا، وقواعد النّحو التي تحدد كيف يمكن أن تنتج مجموعة من الألفاظ معنى"[25]. وفي هذا الصدد نورد قولا يصف عبد القادر الجرجاني من ناحية فكره ومنهجه ومفاده: "عبد القاهر الجّرجاني فيلسوف نحويّ، له منهجه الفريد في علم النّحو، فقد استطاع بما أوتي من الحكمة أن يلبس الكلام ثوبه اللائق به في المعاني النّحوية، وأنّ كتابه ((دلائل الإعجاز)) يعدّ ثمرة لجهود نحويّة جديدة لأنّه خرج بالنّحو من دائرة التعليلات العقيمة عند بعض النّحويين إلى محيط المعانيّ التي تكمن في طيّات التراكيب، أو نقول أنّه تخطّى بالنّحو من مرحلة وقوف بعض النّحويين عند القاعدة إلى الانطلاق في أفاق المعاني التي لها ثمار وضع القواعد النّحوية"[26].

<u>-خلاصة المـقال</u>: عبد القاهر الجّرجانيّ-رحمه الله- عالم لغويّ عظيم متميّز بعلمه الوافر الزّاخر؛ فهو نحويّ بارع، وبلاغيّ مؤسّس، وقارئ مفسّر لآيات (القرآن الكريم)؛ رسم لعلمه منهجا واضحا ينبع من أصالته الدّينيّة، وبيئته الاجتماعيّة؛ جمع بين العلم الشّرعيّ والعلم اللّغويّ، وما توافق من علوم الفلسفة والمنطق عنده؛ لا يتعارض مع وازعه الفكريّ المهيمن على جلّ أعماله، بل صيّره نحو خدمة علوم اللّغة العربيّة، وظلّت فائدة ذلك جليّة ساريةٌ إلى يومنا هذا. وكان من أهمّ ما استوقفنا في حياته العلميّة المعرفيّة والفكريّة النّقاط الاستنتاجيّة الآتية:

1-انتهاجه الأصالة النّحويّة في تخريج أعماله: فلا يخرج على الأحكام النّحويّة والضّوابط القاعديّة، بل إنّه يعتبر النّظم قانون النّحو من حيث هو "توخّي معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معانيّ الكلم"[27].

2-تبنّيه فلسفة العقل (المنطق) في إقرار الأحكام وتخريج الآراء وتعليل الأفكار وبسط الحجج وترسيخ الدّلائل.

3-جسّد قانون معاني النّحو في نظريته للنّظم، فهو رأى أنّ النّحو استحكم قواعده وشدّ عراه، وما نقصه واعتراه يكمن في تخريج قانون المعاني وفق ما نظّر له في عمله الدّلائل في الإعجاز وحديثه المطنب عن معاني النّحو.

هوامش:

(1)-جرجان كما سمّاها العرب، و'كركان' بالفارسيّة، وكانت قديماً تسمّى 'أستراباذ'، وهي "مدينة أعجمية مشهورة وعظيمة تقع في طبرستان وخراسان...وقد فتح المسلمون هذا الإقليم صلحا في لاعهد عمر بن الخطاب سنة 18 هـ"، ينظر، صالح بلعيد، التراكيب النّحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر العاصمة، (د، ط)، 1994م، ص8.

(2)-هو محمّد بن الحسين بن محمّد بن الحسن بن عبد الوارث، أبو الحسين النّحوي بن أخت أبي علي الفارسي (ت421هـ)، ينظر، معجم الأدباء، لياقوت الحموي الرومي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ بيروت ط1، ج6، 1993م، ص2524.

(3)-الجُرجاني أبو الحسن (322 هـ - 392 هـ، 933 - 1001 م) علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني "تتلمذ عليه يده عبد القاهر وقرأ منه"، ينظر، صالح بلعيد، التراكيب النّحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، ص9.

(4)-الشافعية أو المذهب الشّافعي أو الفقه الشّافعي: اشتهر هذا المصطلح منذ البدايات المبكرة لنشوء المدارس الفقهية السنية المختلفة لكنه بالتأكيد ظهر في حياة الإمام محمد بن إدريس الشافعي (150-204 هـ) الذي ينسب إليه المذهب الشافعي. ويعتمد المذهب الشّافعي في استنباطاته وطرائق استدلاله على الأصول التي وضعها الإمام الشافعي بشكل عام، والمذهب الشّافعي "هو ثالث المذاهب السّنية المعتمدة ظهورا، مرّ بمراحل من التّطوّر لم تطرأ على غيره

من المذاهب ففي مرحلة تأسيسه ظهر فيه ما يعرف بالقديم والجديد من أقوال الشّافعي ومذهبه، وكان لهاتين المرحلتين أثرهما الظّاهر الملموس في تحديد المذهب عند المتأخرين"، ينظر، محمّد إبراهيم أحمد علي، المذهب عند الشّافعيّة، مجلّة جامعة الملك عبد العزيز، العدد الثّاني، (جمادى الثّانيّة 1398هـ، مايو 1978م)، ص1.

(5)–الأشعرية نسبة إلى مؤسسها أبي الحسن الأشعري، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري هي مدرسة إسلامية سنية اتبع منهاجها في العقيدة عدد كبير من فقهاء أهل السّنة ، فدعمت اتجاههم العقدي. فقد كان عبد القاهر "متكلما على مذهب أبي الحسن الأشعري"، ينظر، ينظر، صالح بلعيد، التراكيب النّحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، ص9.

(6)–الإمام شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط، ومحمّد نعيم العرقسوسي مؤسّسة الرّسالة للطّباعة، بيروت، لبنان، ط11، ج18 ص432.

(7)–عبد القاهر الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، تحقيق طلعت صلاح الفرحان ومحمّد أديب شكور أمرير دار الفكر، عمان الأردن، ط1، ج1، (1430 هـ – 2009 م)، ص32.

(8)–إنّ نظرية النّظم من أهم النّظريات في البلاغة العربيّة، ومعنى النّظم في اصطلاح اللّغويين تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النّحو. وقد عرّفها صالح بلعيد في كتابه نظرية النظم،هي: ((التأليف والتنظيم والترتيب والجودة ومن ذلك صُنّف النّظم في علوم البلاغة باعتباره يسعى إلى رصف الكلمات وترتيب جودتها وفي حسن التخيّر ومعرفة الموقع المناسب))، دار هومه للطّباعة والنّشر والتوزيع الجزائر، 2004م، ص134.

(9)–المقصود بأخبار التواتر الخبر المتناقل بكثرة في كتب أعلام السّير؛ وهذا ما حصل لأعمال الجرجاني فقد وجدت فيها عناوين شائعة متناقلة بالتواتر مع أنّها غير موجودة؛ لا مطبوعة ولا مخطوطة.

(10)–الإمام شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، ج18، ص432.

(11)–المصدر نفسه، ص433.

(12)–الإمام شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، ج18، ص432.

(13)–المرجع نفسه، ص433.

(14)– صالح بلعيد، التراكيب النّحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجانيّ، ص12.

(15)–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمّد رضوان الدّاية، وفايز الدّاية، دار الفكر، دمشق سورية، ط1، سنة النّشر: (2007م)، ص16/15.

(16)–نظرية النّظم من أهمّ ما جاء به عبد القاهر الجرجاني الذي عرّفها ((بتوخي معاني النّحو))، وتعريفها وقواعدها جليّة بصورة واضحة في كتابه: 'دلائل الإعجاز'.

(17)–شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د–ت)، ص168.

(18)–المرجع نفسه، ص160.

(19)–عبد المجيد معلومي، مجلّة دعوة الحق، مجلة شهرية تعنى بالدّراسات الإسلاميّة وبشؤون الثقافة والفكر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الرّباط، المغرب، العدد343، (محرّم 1420هـ–ماي 1999م)، ص21.

(20)–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص65.

(21)–المرجع نفسه، ص82.

(22)–أقصد بالمقارنة المتزنة: الاطلاع على آراء علماء اللّغة حول تفسير مسائل اللّغة؛ كقضايا معاني النّحو من حذف وتقدير، وغيرها والوقوف على مسافة علميّة واحدة في تقدير الصواب، وترجيح الآراء والموازنة بينها.

(23)–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص30.

(24)–المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري (80هـ – 131م) في البصرة (في أواخر العصر الأموي)، وقد ازدهرت في العصر العباسي، لعبت دوراً رئيسياً على المستوى الديني والسياسي اشتهرت بالنزعة العقلية وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل، وقالوا بوجوب معرفة ((الله)) "عزّ وجلّ" بالعقل، وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصلا لنّص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناه، "فقد سلكت منهجا عقليا متطرفا في بحث العقائد الإسلاميّة، وهم أصحاب واصل ابن عطاء الغزال الذي اعتزل مجلس الحسن البصريّ"، ينظر، عواد بن عبد الله المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السّنة منها، مكتبة الرّشد، الرياض، ط2، (1416هـ، 1995م)، ص.14

25–سمير أبو زيد، نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني بأوّل محاولة في العلوم الإنسانية، مجلّة المواقف للبحوث والدّراسات، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر، العدد الأوّل (ديسمبر–جانفي)، 2007م، ص295.

(26)–فؤاد علي مخيمر، فلسفة عبد القاهر الجرجانيّ النّحوية في دلائل الإعجاز، دار الثقافة للنّشر والتوزيع (د–ط، د–م)، 1983م، ص6.

(27)–عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص479.